تدبر القرآن الكريم

بقلم الدكتور محسن عبد الناظر

اذا ما أجال أحدنا النظر حوله وتأمل في الكون بمن فيه ، وبما اشتمل عليه من مخلوقات ، فانه يلاحظ أن الكائنات أصناف وأنواع ، وأنّ بعضها أفضل من بعض ، وهذا التفاضل فيه ما يقبله الانسان ويرتضيه ، وفيه ما يرفضه وينقده ، يقبل التفاضل إذا كان مبنيا على الأمور المنطقية الخاضعة للكسب ولبذل الجهد ، وله نتائج لا تستقيم الحياة إلاّ بها . ويندرج تحت هذا النوع تفضيل الانبياء على غيرهم من البشر . فالنبوة وهي لطف الهيّ تحمّلُ صاحبها اعمالا فيها من المشقّة والصّبر الشيء الكثير ، ذلك أن هداية البشر وحملهم على منهج يعدّل في كثير من الأحيان شهواتهم ، من الأمور التي تتطلب اتقادا ذهنيا وعملا حركيا وصبرا بناء . وكما فضل الله الرسل على كافة البشر ، فانه فضل أولي العزم منهم على غيرهم . فهؤلا وان اشتركوا مع اخوانهم في تبليغ ما أوحي إليهم ، وفي الذود عن التعاليم التي أرسلوا بها إلا أن ظروفهم تطلبت منهم عزيمة إضافية وصبرا أقوى ومعاناة أعمق .

وأخيرا فضل سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام على جميع الأنبياء لأنه حمل رسالة ختمت بها الرسالات السماوية ، ومكنت الانسانية من وسائل تستطيع بفضلها أن تتقدم وتتطور وتقيم علاقات بين الأفراد مبنية على العدل والانصاف وإعمال العقل ، فقد ترك الرسول الكريم للمجتمع الانساني ما به يبتعد الافراد والجماعات عن الضلال ، وما بواسطته ينمو العلم والخير ، ويَطَّرِدُ التقدم البشري . فقد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله « تركتُ فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي » . (1)

---

(1) أبو داود : مناسك : 56 – الترمذي : مناقب : 31

لقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بأوصاف تؤكد على أن كلّ ما جاء فيه هو الحق المطلق والصدق الذي لا يمازجه أدنى شك .

قال تعالى : وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا . (الاسراء : 105) ووصفه أيضا بانه كتاب لا تخلق جدته على مرّ الزمان ، فلنتناول بالبحث قضية تدبره .

وجوب تدبر القران الكريم وأهدافه

لقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الانسان إلى تدبّر القرآن الكريم والغوص في معانيه وفهم توجيهاته والاستنارة بنوره والاهتداء بهديه والتنعم بظلاله والتغذي من مائدته .

فالله تعالى المنزه عن العبث لم ينزل القرآن الكريم ليكون قطعة متحفية تزين بيوتنا ومساجدنا ومكتباتنا ، ولا نصا جامدا لا يلجأ إليه إلا في بعض المناسبات كالاتراح او افتتاح بعض الاعمال ، وانما انزله لنتفكر في آياته وسوره ولنتفهم ما فيه من أسرار ، وحكم وهداية نتمكن بفضلها من استنباط وسائل التقدم العلمي والاجتماعي والاقتصادي . وهذا التفهم وتلك الاستنباطات يستدعي جميعها أن يكون تعاملنا من النص القرآني تعاملاً ذكيا تستخدم فيه كل الامكانيات التي وفرها الله تعالى للانسان أي ان التدبر لا يكون إلا من أولي الالباب ، قال تعالى : « كتاب أنزلناه ، إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب (صٓ : 29) وحتى يشعر الله تعالى عباده بان تدبر القران يعود عليهم باليمن والبركة والفضل الجزيل ، وصف القرآن باوصاف متعددة : فهو قرآن عظيم لما ورد فيه من أخبار الاولين والآخرين ، ولما قدمه من احكام ضرورية لتكوين الفرد التكوين الشامل ، ولبناء المجتمع البناء المتين البعيد عن القهر والظلم ، ولما أورده من معلومات قد تثير في الذهن قضايا إذا تناولها الانسان تناولا سليما بعيدا عن التقليد الاعمى والجدل العقيم فهي تفتح امامه أبواب المعرفة وتمكنه من اكتشاف الاسرار دون غرور ولا تمحّل على الاخبار . لقد أكد الله تعالى

على عظمة القرآن الكريم فخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم (الحجر : 87) . فاذا ما تدبره اللبيب هذب لسانه وافصح بيانه ، وغذى فكره ، وصفى قلبه وأكسبه تجارب يستطيع بفضلها أن يضمن للمجتمع الانساني التقدم والاخوة والسلام.فقد أكد بعض المفسرين عند تعرضهم لقوله تعالى : يس والقرآن الحكيم : ان الحكيم معناه المحكم الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل ولا يعتريه تناقض أو بطلان ، قال القرطبي : احكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل (2) ، كما أكد البعض الآخر على جانب الحكمة والاعجاز الموجودين بالقرآن الكريم ، قال ابو السعود ، والقرآن الحكيم أي المنطوي على بدائع الحكم . (3)

وإلى جانب وصفه بأنه عظيم وبأنه حكيم ، وصف الله تعالى القرآن بأنه مبين و كريم ومجيد وبانه الحق وغيرها من الصفات التي تدعو الانسان إلى تدبر كل آيه من آيات القرآن الكريم وتفهم كل كلمة من كلماته ، والوقوف على كل توجيه من توجيهاته ليستخلص جانب العظمة ، وميدان الحكمة ، ومقدار البيان وحدود الحق . وهكذا يتضح لنا أن مجموع الصفات التي وصف بها القرآن هي في الحقيقة دعوة من الله تعالى للانسان حتى يتدبر النص القرآني تدبرا يكشف له ما كان جاهله ، ويهديه إلى ما هو جدير بالتعلم ، ويرشده إلى ما بفضله يجعل حياته ذات معنى . فصفات القرآن الكريم لم تكن ألقابا لمدلول واحد ، وانما كانت ارشادات إلهية تحث الانسان على إعمال الفكر في مجالات مختلفة . ولم يكتف الله تعالى بهذه الاشارات والارشادات لأنه تعالى يعلم أن من الناس من لا تكفي معهم الاشارة ولا البرهان ولا البيان . فهم يميلون إلى الكسل الذهني والعناد الصبياني فبين لهؤلاء عيوبهم وذكر العلل التي يبرّرون بها كسلهم الذهني فاستهجنها وحذر منها ، فقد قص علينا ما قاله كفار قريش الذين أرادوا أن يقنطوا الرسول صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، وأن يسدوا

(2) القرطبي : أحكام القران . 15 / 5

(3) أبو السعود : تفسير . 4 / 247

أبواب الحوار البناء والجدل الهادف . فادّعوا أن قلوبهم في أكنة ، وانها محفوظة في أغلفة . فلن تستطيع الادلة مهما كانت قوتها أن تحررها من القيود التي فرضت عليهم ، أو فرضوها هم على أنفسهم . لقد أعلمنا الله تعالى أنه أبعدهم من رحمته نتيجة عنادهم وتعطيلهم لاسمى جهاز خصّ به الانسان ألا وهو العقل : وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . (البقرة : 88) .

وإلى جانب التشهير بالاسباب الواهية التي ينطلق منها المعطلون للعقل والمعتدون على حرمة الفكر، وإلى جانب توعدهم بالعذاب الأليم، فان القرآن قد شبههم بالانعام وبالحجارة ، فهم مثل الحمار الذي يحمل كتبا ضخمة تضم المعلومات الجليلة والوسائل الكفيلة بتسهيل الحياة ، ولكنه لا يفقه شيئا مما يحمل، ولا ينتفع بما ينقل من كنوز لو استخدمها لصالحه لكان في أرغد عيش وأيسره . فاليهود الذين حمّلوا التوراة وكلّفوا بحفظها والاهتداء بهديها ، أهملوا تدبرها وأصبح همهم الوحيد اخضاع نصوصها لهواهم ، فمثلهم «كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين» (الجمعة : 5) وأسوأ حالا من هؤلاء الذين يحملون العلم ولا يفقهون منه شيئا ويتلون القرآن ولا يتدبرونه ، أولئك الذين يظنون انهم يسمعون وأنهم يفقهون وهم أبعد الناس عن الفهم ، فقد جعلوا بينهم وبين الحقيقة حجابا مسرودا من العادات والتقاليد والجشع والاستعلاء وبخس الناس أشياءهم . لقد طلب الله تعالى من المسلم الا يكون مثل هذا الصنف من البشر فقال : ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شرّ الدّواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . (الانفال : 21 — 22) .

ولو أراد الباحث أن يجمع الآيات التي تأمر بتدبّر الآيات وتحث على الفحص والتمحيص والاستنباط والاستنتاج لالف في ذلك المجلدات ولعل قوله تعالى : أفلا تتدبرون القران أم على قلوب أقفالها (محمد : 24) خير ما يختم به الكلام المتصل بوجوب تدبير القرآن وعدم الاقتصار على تلاوته والاستماع إليه أو حفظه الحفظ الآلي الذي لا يقترن بالفهم ولا يؤثر

على السلوك . فهل يستطيع المرء أن يستخرج الاسباب التي تحتم هذا التدبير وتجعله أمرا لا مناص منه ولا سبيل لمناعة المجتمع الاسلامي إلا به ؟

أسباب التدبر

ان وجوب تدبر القرآن الكريم لم يكن نتيجة لقصور في نصه ولا لغموض في معانيه ولا لعجز في اسلوبه . فالنص القرآني انزله عزيز حكيم ، منزّه عن النقائص أحسن كل خلق خلقه ، قدر فأجاد التقدير ، ودبر فأبدع التدبير فسبحانه وتعالى عما يصفون ، فتدبر القرآن اذن ليس وليد السلبيات . ولا نتيجة من نتائج النقص ولا ضررة من ضروريات الظروف والملابسات . وانما يخضع لمشيئته الهية تمثلت في أن يكون الاسلام عاما لكلّ البشر ، شاملا لكلّ القضايا والمسائل والأحكام . فالاسلام هو خاتم الديانات، وقد اقتضى هذا الختم أن يترك بين ايدي الناس ما بفضله يستطيعون فهم القضايا العقدية وحلّ المشاكل الاجتماعية والسياسية ، واستنباط الاحكام التشريعية التي لا تقوم المجتمعات إلا بفضلها ، ولا تحفظ الحقوق إلا في ظلها ، فالاسلام هو خاتم الديانات قد هيأ الإنسان ليحافظ على النصوص محافظة تامة لا تشوبها شائبة ، وان يستقرئها الاستقراء الصحيح ، فلا تعود هناك حاجة لبعثة رسول يصلح ما أفسده الانسان ، ويخلص الحقيقة التي مازجها الخيال ، فالفكر الانساني هو الذي يقوم بالتقويم إذا ما حصل الاعوجاج ، والعودة إلى الكتاب والسنة هي التي تجدّد الدين ، وتعيد إليه نضارته كلما لحقته التأويلات الفاسدة ، أو تسلطت عليه القوى الغاشمة ، وفي هذا الإطار نفهم مع محمد إقبال : ان النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى إلغاء النبوة نفسها أي إلى ختمها . وهو أمر ينطوي على إدراكها العميق لاستحالة بقاء الوجود معتمدا إلى الأبد على مقود يقاد منه ، وان الانسان لكي يحصل كمال معرفته لنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو (4) .

---

(4) اقبال (محمد) تجديد التفكير الديني في الإسلام ص 144

فهل كان الظرف الذى نزل فيه القرآن الكريم مساعدا على المحافظة على نصّه ، وهل كان الانسان في ذلك الوقت قادرا على تفهمه وعلى نقله نقلا أمينا . ؟

ظروف نزول القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم بالجزيرة العربية في مجتمع كثرت تناقضاته ، فالتغني بالجود والكرم والمروءة والشجاعة يتداخل مع مدح فتك الانسان بأخيه الانسان لأبسط الأسباب وهدر دماء المستضعفين وحرمان بعض أصناف من البشر من الحياة ، فقد كثر وأد البنات ، فلا عجب إذا نتجت عن هذه التناقضات أحداث مؤلمة ، فالحرب تشتعل نيرانها لأتفه الأسباب . وأبناء القبيلة يطردون من حظيرتها ، فيهيمون على وجوههم ويتخذون من السلب والنهب طريقة لهم في الحياة . ثم هم بعد ذلك يجودون بأموالهم ويتصفون بالفتوة ، ولا يتسع المقام هنا للالمام بهذه التناقضات والنقائص وانما أشير إلى خطبة جعفر بن أبي طالب التي ألقاها في مجلس النجاشي ، وعدد فيها نقائص المجتمع الجاهلي .

ان التناقض في ميدان القيم قد تولد عنه تناقض في ميداني العلم والمعرفة . ففي حين اعتنى العرب عناية فائقة بالقصائد الشعرية فكتبوا البعض منها بماء الذهب وعلقوه في فناء الكعبة ، أهملوا أغلب الفنون التي كانت معروفة عند جيرانهم كالروم والفرس .

هذه بعجالة حالة الجزيرة العربية عند نزول القرآن ، هناك امكانيات بشرية ، وهناك رحلات تجارية ، ولكن التناقضات أثرت على الايجابيات ، وكادت تطمسها ، أما البلدان المجاورة فكانت أيضا تعيش تناقضات لا تقل حدة،رغم مظاهر الحضارة التي تمثلت في الميدان الفلسفي والطبي والمعمارى . فالحرية التي كان يتمتع بها بعض الأسياد قابلتها عبودية جعلت الانسان عبارة على بضاعة أو متاع .والسلطة التي يتمتع بها الملوك والاقطاعيون تقابلها مسكنة وخضوع وخنوع ، والمكاسب المضمونة لبعض الطبقات تجاور سلب أموال الضعفاء وحرياتهم وسد آفاق التقدم أمامهم . واذا أضفنا إلى

هذه السلبيات الحروب التي كانت تمزق المجتمعات استطعنا أن نقول مع فيلسوف باكستان محمد اقبال : ان المجتمع الانساني قبيل نزول القرآن الكريم كانت الحضارة فيه أشبه بدوحة هائلة ، كانت أوراقها قد ظللت العالم ، وكانت فروعها قد حملت ثمارا ذهبية من الفن والعلم والأدب وقد أخذت تترنح وتتمايل لأن ساقها أصبحت لا تتغذى بالعصارة المتدفقة من الاخلاص والاجلال ، بل وصل التعفن إلى لبابها ومزقت الحروب أوصالها وأصبح لا يمسكها معا إلا خيوط من عادات وقوانين قديمة قد تنقطع في أية لحظة (5).ونزيد إلى قولة اقبال هذه أن الفلسفات والمذاهب الحكمية عجزت على الاصلاح الشامل وتعذر عليها أن تقدم قوانين وتوجهات تكون صالحة للناس بمختلف أوطانهم وأصنافهم رغم الصلات التي أوجدتها بينهم الحروب والتجارة .

أما الديانات السابقة فان بعضها وان كان منزلا من عند الله ، إلا أنه كان خاصا بقوم دون آخرين ، فكل رسول قد أتى بشريعة محدودة في الزمان والمكان ، فموسى عليه السلام قد بعثه الله تعالى إلى قومه بني اسرائيل فرسالته لا تتجاوز المحيط الجغرافي الذي كان لهؤلاء القوم ، ثم انها نسخت برسالة عيسى عليه السلام .

واذا ما أضفنا إلى ذلك ما أثارته الفلسفات والمذاهب الحكيمة من مباحث كثيرا ما أخضعت التوجيهات الدينية لمحك النقد ، وكثيرا ما مزجت بين التأويلات المختلفة لنصوص التوراة والانجيل لتوليد مذهب جديد ، أدركنا أن المجتمع الانساني عند نزول القرآن الكريم قد تهيأ لقبول دين عام شامل يمكّن من ادخال اصلاحات جذرية على العلاقات البشرية ومن تركيز دستور إلهي يرسم المعالم الصحيحة للتقدم الحضاري والرقي الفكري . فجاء القرآن الكريم مستجيبا لهذه التطلعات .

فهل كان النص القرآني عاما أي موجها إلى كل الناس وكيف استطاع أن يكون كذلك . ؟

---

(5) المصدر السابق ص 169

عموم الخطاب في القرآن يدعو إلى التدبر

لقد ذكرت آيات كثيرة ان الاسلام لا يخص شعبا دون آخر ولا يخاطب جيلا دون جيل. فهو يتوجه بأدلته وبراهينه وأحكامه وأوامره ونواهيه وتوجيهاته واشاراته إلى كل الناس لا يميز بينهم إلا بمقدار تفهمهم لما ورد فيه ودرجة ما يقدمونه من أعمال، «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا» (الاعراف : 158).

وقد أكد الله هذا العموم فأعلم رسوله أنه بعثه إلى كافة الناس بدون استثناء، وأنه كلفه بان يبشر وبأن ينذر، كما أخبره بأنّ أغلب الناس يجهلون هذا العموم ويرفضونه لجهلهم، ذلك أن الناس أعداء لما جهلوا وأعداء لما لا تهواه أنفسهم، ولا يساير شهواتهم في تطرفها واندفاعها. قال تعالى «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا. ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (سبأ : 28).

وما كان هذا العموم ممكنا لو أنّ النص القرآني غير قابل للتدبر، فكيف يستطيع نص مهما كان طوله أن يستجيب لرغبات الانسانية في مشارق الأرض ومغاربها، وفي الأزمنة المتباعدة، ومتى ظهر في تاريخ البشرية كتاب باستثناء القرآن الكريم استطاع أن يستجيب لتطلعات البشر حيثما كانوا سواء كانت فكرية أو عملية أو سلوكية، فالله تعالى قد ذكر الاصول العامة التي يشترك فيها الناس، وبيّن حاجياتهم الاساسية وصور ما يعتري نفوسهم وأجسامهم من تطورات، فأعلمهم أن أصلهم واحد ومصيرهم مشترك. فهم قد انتقلوا من اللاّ وجود إلى وجود فيه معرفة جزئية وحياة محدودة ليصلوا بعد ذلك إلى وجود تكون المعرفة فيه مطلقة والتذكّر لا تعتريه النقائص، والسعادة لا تعكرها الشوائب لمن عمل صالحا، والشقاء لا يعرف الأمل إليه سبيلا لمن لم يتفكر ولم يقدم في دنياه لآخرته إلا السوء وقول الزور «وقيلا وقال» وهتكا للأستار.

فالانسان في العصور المختلفة والاماكن المتباينة يقرأ قوله تعالى :

يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» (الحجرات : 13) فيشعر بأنّه معني بهذا الخطاب وأنه يستطيع توظيفه لما يجد في مجتمعه وفي محيطه . فاذا وجد في مجتمع يسود علاقات أفراده الاختلاف والتناحر بسبب التفاخر بالآباء والأجداد والأنساب ، فانه يستطيع معالجته هذه السلبيات انطلاقا من الحكمة الالهية التي جعلت الانسانية شعوبا وقبائل ، والمتمثلة في تباين البيئات الجغرافية ، واستحالة تجمع البشرية قاطبة في رقعة معينة ، ومع إقرار القرآن الكريم بضرورة تباين الأمم والشعوب ، إلا أنه دعا إلى التعارف وأكد على أن التفاضل بين هذه الشعوب لا يكون إلا على أساس العمل . فالانتساب إلى شعب من الشعوب أو مجموعة من المجموعات يفقد قيمته التفاضلية أمام ما هو أعظم منه ألا وهو الايمان والتقوى . فالحسب والنسب لا يستطيعان الظهور أمام الايمان والعمل ، كما أن الكواكب لا تظهر عند طلوع الشمس . أما من وجد في مجتمع اقتصرت فيه معرفة الانساب على ما هو ضروري لحياة الأفراد والجماعات ، فإنه يستطيع أن يتدبر قوله تعالى « لتعارفوا » فيبحث في طبيعة التعارف وفي طرقه وفي الظواهر التي تعين على تحقيقه حتى تستثمر الاستثمار الحسن ، وتستخدم الاستخدام الحكيم ، وفي الموانع التي تقف حاجزا دونه حتى تذلل وتوجد لها الحلول .

ان تدبرا كهذا ستنتج عنه حتما دراسات اجتماعية كقضية التعاون البشري ، والتكانف الاجتماعي ، والتكامل بين فئات المجتمع فتوضع لذلك العقود الاجتماعية والمؤسسات التعاونية . كما تتولد عنه الدراسات اللغوية ، ذلك أن أي تعارف بين البشر من مختلف الاصقاع لا يكون مجديا إلا إذا تعلمت كل مجموعة لغة المجموعة الثانية ، واطلعت على خفاياها وأسرارها . فاللغة كما أكد ذلك العلماء ، ظاهرة اجتماعية ، إن هذا النوع من التعلم سيقود حتما إلى البحث الدائم المستمر ، بحث في الطرق والوسائل المؤدية إلى حذق لغة من اللغات في أقصر مدة وبأيسر التكاليف ، وبحث في المقارنة بين لغة وأخرى . وإلى جانب المباحث اللغوية والاجتماعية فان التعارف بين البشر يتطلب دراسة الانظمة الانسانية والمؤسسات الادارية .

فنحن نلاحظ أن تدبرنا للآية المتقدمة يفتح أمامنا أبوابا كثيرة ، ويحثنا على دراسة فروع متنوعة من فروع المعرفة . أما إذا ما تدبرنا قوله تعالى : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتّبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين (البقرة : 168) فاننا نتأكد من عموم القرآن الكريم ومخاطبته كل الناس ، كما نتأكد من أننا مطالبون بان نجد الطرق والوسائل الكفيله بتوفير الانتاج الفلاحي حتى يتمكن كل فرد من أفراد المجتمع من الحصول على الغذاء الكافي ، كما أن الآية تدعو إلى التمييز بين الأكل الحلال والأكل الحرام . فهذا التمييز يتطلب من الانسان أن يبحث عن المقاييس والمعايير التي تحميه من أن يقع في المحظور ، فأي مجتمع يستطيع مع فقدان هذه المقاييس والمعايير من أن ينظم قضايا تغذيته دون أن يقع في الحرام ان قليلا أو كثيرا ؟ الا يمكن للمصلح وللساهر على حقوق مجتمعه أن ينطلق من التأكيد على ضرورة الأكل الحلال ليحمي الانسان من نفسه الامارة بالسوة أولا ، ومن جشع أخيه الانسان ثانيا ؟ ألا يجد المتدبر لقوله تعالى «ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، درعا ومنبها يجعلان من نفسه اللوامة سيدة الموقف كلما استيقظت النفس الامارة بالسوء . ثم ألا يمكنه أن ينطلق من هذه الآية ليبحث في الأمراض النفسية التي تزين لصاحبها مخالفة القانون لتحقيق المآرب . فيسعى إلى علاجها بقطع دابرها نفسيا قبل أن يلتجىء إلى وسائل الردع . إن المتدبر في القرن العشرين أو فى غيره من القرون يشعر وهو يتناول الآية المتقدمة انها تهمه وتحميه ، وترسم له نمط الحياة الذي يعود عليه وعلى المجتمع بالصلاح ، وهي إلى جانب ذلك تفتح أمامه أبواب المعرفة وتدعوه إلى التعمق في العلوم الفلاحية والاجتماعية والنفسية وغيرها .

ان تتبع الآيات التي جاءت تخاطب الناس عموما يبرز أن النص القرآني ، وإن نزل في القرن السابع الميلادى وفي الجزيرة العربية ، إلا أنه يتخطى المكان والزمان ليعم البشرية قاطبة ، ذلك أن تدبره وتفهمه واستخراج ما فيه من معاني ، واستنباط ما ضمّه من أحكام ، يجعله مناسبا لكل فرد من الأفراد أو مجموعة من المجموعات . فهو يخاطب في الانسان روحه وفكره وجسمه . وهو لا يخاطبه على أنه عربي أو فارسي أو قبطي ،

وإنما يخاطبه على أنه إنسان لا يختلف في دوافعه وفي ضرورياته الأساسية عن غيره من البشر .

واذا كان النص القرآني عاما ويكمن عمومه في أنه يسمح لمتدبره بأن يتأكد من أن الخطاب الالهي موجه إليه ، فهل تطرق هذا النص إلى كل ميادين الحياة الانسانية في حاضرها ومستقبلها ، وما هي الطريقة التي بفضلها حقق ذلك . ؟

الشمول يدعو إلى التدبر

إنّ ختم القرآن الكريم للوحي الالهي وعمومه ، وهدايته تتطلب من نصه أن يكون مشتملا على كلّ ما تقتضيه حياة الانسان بجوانبها المتعددة ، حتى لا يبقى ميدان من الميادين أو أمر من الأمور بدون حكم إلهي ، ولذلك نجد القرآن الكريم ينبه إلى هذا الشمول ويؤكد أن الحاكمية المطلقة لله تعالى دون سواه ، وأنه لم يترك أمرا ضروريا للحياة البشرية لم يتطرق إليه في القرآن الحكيم . قال تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (الانعام : 38) وقال « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » . (الزمر : 27)

فالله تعالى كما ورد في الآيتين المتقدمتين لم يترك شيئا يحتاج إليه الانسان دون أن يبيّنه أو يرسم للفكر البشري طريقة الوصول إلى معرفته ، أو استنتاج حكمه أو وضعه في مكانه المناسب . قال ابن مسعود رضي الله عنه : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء (6) وقال الامام الشاطبي « لا عمل يفرض ولا حركة ولا سكون يدعى إلا والشريعة عليه حاكمة افرادا وتركيبا » . (7) فهداية القلوب وطمأنينة النفوس وما يكون مصدرا للعلم وما بفضله تبنى المجتمعات ويقام العدل ، وما بدونه لا ينتشر العمل

---

(6) مختصر تفسير ابن كثير 1 / 343

(7) الشاطبي : الموافقات : 1 / 41

الصادق ولا يميز بين الحقيقة والخيال كلّ ذلك موجود في القرآن الكريم بصورة من الصور .

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذّهن هنا هو كيف يمكن للنص القرآني المحصور بين دفتي المصحف أن يشمل قضايا الفكر الانساني عبر العصور ، وان يقدم حلا للمسائل اللامتناهية ، والتي تخضع في نشأتها وفي تطورها إلى ما يعترى الانسانية من تقدم أو تأخر . وبعبارة أخرى كيف يستطيع نصّ اتفق الجميع على أن له بداية ونهاية ، أن يستجيب للقضايا العقدية والتعبدية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية والتربوية التي تتطور وتتبدل من جيل إلى جيل ، وتتراكم وتتضخم مع مرور الزمن ؟ فالفلسفات المتلاحقة والعلوم المتكاملة والأداب المتشابكة تكوّن تراثا ضخما لا تستطيع مكتبات الدنيا أن تضمه أو تحتويه ، ومع ذلك فان مجموعها لا يستطيع أن يدعي أنه شامل لكلّ قضايا الانسان . فكيف استطاع القرآن الكريم أن يحقق مبدأ الشمول ؟

ان المتدبر في النصوص القرآنية يلاحظ أنها تأتي بالكليات وأنها تثير الفكر وتوجهه وتأخذ بيده ، ثم تتركه يبحث ويكتشف ويقارن ليصل إلى النتيجة التي مكنه القرآن الكريم من معايير تسمح له بمعرفة صحتها ودرجة اليقين فيها .

فمن أراد أن يعرف أصل الانسان ومصيره فعليه أن يجمع الآيات المتعلقة بهذا الموضوع ، وأن يعمل فكره ، ووسائل المعرفة المتوفرة في عصره ليخرج بالأجوبة المقنعة . فلننطلق مثلا من قوله تعالى « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا . (الانسان : 1 — 2) ان التدبير لهذه الآية سيعلم ان الانسانية مرت بفترة يمكن أن نسميها اللاوجود ، أي أن كوكبنا الأرضي قد وجد قبل الانسان . وان هناك حيوانات قد سبقت الانسان ، فعمرت هذه الأرض . فهذا التدبر يفتح باب البحث عن عمر الانسان على الأرض . فاذا ما توصل إلى ذلك بطريقة علمية زاد إيمانه

بأن تطورات كثيرة حدثت على كوكبنا هذا الذي لم يكن هو أيضا موجودا ثم وجد. فلا خلود إذن للمادة، ولا صحة للمذهب القائل بأزلية الكون ذلك أن كل ما له بداية فلا بد أن تكون له نهاية ، هذا هو قانون عالمنا الأرضي ، فالتدبر والتأمل والبحث العلمي وسائل تؤكد صدق الآية ، وتزيد ترسيخ الايمان في القلوب بها ، وتفتح باب الايمان بوجود الله عن طريق العلم بعد أن أكدته النصوص . فهذا الكون الذي لم يكن ثم كان، وهذا الانسان الذى مرت عليه فترة كان فيها في اللاوجود ، لا بد أن يكون لهما خالق خلقهما ، وقدّر طريقة حياتهما . وهذا الخالق لا بد أن يكون قويا عظيما مدبرا عليما حكيما جاعلا لكل شيء سببا منزها عن العجز والعبث فلم يخلق خلقا الا لحكمة ، ولم يقدر أمرا الا لغاية .

ولعل بعضهم لا يكتفي بهذا القدر من معرفة أصل الانسان ، فيقول أنا أعلم أنّا خلقنا من نطفة ، وأن جميعنا هو نتيجة لتفاعل بين حيوان منوى وبويضة . ولكني أريد أن أعلم كيف خلق الانسان الأول. لم يترك القرآن الكريم أمثال هذا في حيرتهم ، ولكنه أيضا لم يقدم لهم الجوزة مقشرة ؛ بل قص عليهم قصّة خلق آدم عليه السلام وكررها في مواطن متفرقة من القرآن ، وأكد في كل موطن على جانب من الجوانب . فهو في موضع يركز على مرحلية الخلق وانتقاله من طور إلى آخر ، ومن هياة إلى أخرى « إذ قال ربك للملائكة إنّي خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (ص : 71 — 72) . وفي موطن آخر يعتني بالمواد التي كان منها الخلق : وإذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين (الحجر : 28 — 29) وفي موضع ثالث يؤكد على علّة تكريم الانسان المتمثلة في كونه خصّ بالعلم والمعرفة والخلافة في الأرض وأعطي من الأجهزة ما بفضله يستطيع أن يكون قادرا في الحدود التي أرادها الله له .

« وإذْ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟

قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين » . (البقرة : 30 — 31)

ولما أقر الملائكة بعجزهم وبأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم ربهم ، أمر الله آدم بأن يعلمهم ما غاب عنهم .

إن قصة آدم في القرآن لا تقيم فرضية نسبية ولا تقدم معادلات كيمياوية ، وانما تقدّم معلومات إذا ما ربطها المتدبر بقدرة الله تعالى وحكمته ، مكنته من أن يتأكد من أن الله تعالى أراد أن يخلق الانسان ، فهيأ لذلك الظروف وجعل هذا الخلق الجديد يمر بمراحل مختلفة ليصل إلى السمو والتشريف «فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . »

ان قصة خلق آدم عليه السلام تفتح للمتدبر أبواب البحث والنظر . فمن خلالها تدرس مرحليّة الخلق الأول وتقارن بمرحلية تكوين الجنين وتدرّجه من حالة دنيا إلى أن يبلغ أشده ، وتصبح له قدرات متنوعة حتى أنه أحيانا يتجبر ويتكبر نتيجة شعوره بالقوة .

فمن مرحلة الحيوان المنوي إلى مرحلة النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل العظمي الذي يُكسي بعد ذلك لحما. فاذا ما بلغ هذه المرحلة من النمو تهيأ لتنفخ فيه الروح وتدب فيه الحياة . فيصبح متحركا معبرا عن وجوده . ثم تقوده هذه الحركة إلى الخروج إلى العالم ، فيواصل نموه إلى أن يشتد عوده وتتقوى ملكاته قال تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . (المؤمنون : 12 ، 13 ، 14) فتدبر هذه الآيات ومقارنتها بقصة خلق آدم وبما توصل إليه علم الطب اليوم تزيد العقيدة تدعيما وترسيخا . فلو تدبر المسلمون هذه الآيات التدبر الحسن ، ولو تدرجوا في بحوثهم التدرج المنطقي المتواصل المؤمن بأن نهاية المتقدم يجب أن تكون بداية المتأخر ، لكانوا هم الذين أوجدوا العلوم والآلات المستخدمة في ميداني التناسل والتوليد ، ولحققوا على أقل تقدير هدفين رئيسين : أما أولهما

فيمكن المسلم من عقيدة قوية لا تشوبها شائبة ولا يعتريها الشك لأنها تستخدم الوسائل المتطورة لاقناع الفكر ، ولأنها لا تحبس نفسها داخل محيط ضيق يقتصر على أدلة كانت صالحة في فترة من الفترات ثم تجاوزتها الأحداث .

إنها عقيدة تقوى شخصية المؤمن ، فتجعله معتزا بانتمائه الحضارى ومدركا للحقائق الكونية ، وشاعرا بعظمة الله تعالى وقدرته ، وطالبا لمزيد من المعرفة والتعمق في الفهم . ذلك أن غريزة التدين وحب طلب الغيب المجهول ينموان بنمو العلم والمعرفة . فدراسة جسم الانسان دراسة تحليلة والاطلاع على سير الاجهزة والاعصاب والشرايين ونمو الخلايا وتجددها تكسب المؤمن الذى يتلو قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله عز وجل «وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ، شحنات تقوى عزيمته وتدفعه إلى مزيد من التعلم والاكتشاف والاختراع . فكلما فتح بابا أو حل لغزا ، أو توصل إلى قاعدة إلا وتواردت عليه أسئلة جديدة . ووجد نفسه أما قضايا ناشئة تدفعه إلى مواصلة العمل . وهكذا يبقى العالم المسلم في حركة متواصلة لا يعرف الكسل إلى ذهنه سبيلا ، ولا يعتريه الكلل الفكرى ، أو الجمود الحضارى ، وهو في عمله الدائب مرتبط أوثق الارتباط بخالق الكون ينطلق في مباحثه من اشاراته ، ويحمي نفسه من الضياع بتوجيهاته ، فاذا ما توصل إلى فهم المعادلات وكشف الأسرار وصنع الأجهزة والآلات فإنه يوظف ما توصل إليه ليدعو إلى الله تعالى ولينير السبيل أمام غيره من البشر ، وليكوّن معهم مجتمعا قويا بعقيدته الصحيحة وعلومه النافعه ، وتقنياته التي لا تستخدم للهدم والدمار . وهذا هو الهدف الثاني من تدبر آيات خلق الانسان والمراحل التي يمر بها ليصبح مفكرا قويا وصانعا مخترعا ، ومذللا الصعوبات ومخضعا عناصر الطبيعة لصالحه . واذا ما تدبر دارس آيات أصل الإنسان وطريقة تناسله واستنتج منها عظمة خالقه ووظفها لمباحثه ودراساته ، سهل عليه بعد ذلك أن يدرك مصيره . فهو حتما لم يخلق عبثا ، وهو يقينا ليس ريشة تتقاذفها الرياح ، ولا لعبة تلهو بها الأقدار ، إنه مخلوق للعمل وللبقاء .

خلـق النـاس للبقـاء فظلــت أمــة يحسبــونهـم للنفـــاذ
إنمــا ينقلــون من دار أعمــال إلى دار شقـــوة أو رشـــاد

فالله المنزه عن العبث أوجد الانسـان ، وأكسبـه أجهزة ضرورية ، ورسم له سواء السبيل ، ثم كلفه بأن يقوم بوظائف متنوعة تجعل منه خليفة في الأرض ، ومسيطرا على عناصر الطبيعة ومستثمرا للخيرات وأعلمه أنّ هذا التكليف يقع في مرحلة انتقالية تنتهي بالموت الذى هو مرحلة من مراحل رحلة الانسان توصله حتما إلى مرحلة موالية هي الحياة الباقية ، أو الدنيا الآخرة ، أو دار البقاء التي لا فناء فيها ولا تكليف بل خلود وجزاء . وقد صورت آيات كثيرة هذا الانتقال من مرحلة إلى أخرى ، وأكدت على أن مصير الانسان ومآله هو إلى الله تعالى : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علمّ الانسان ما لم يعلم . كلا ان الانسان ليطغى أن راه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى . (العلق : 1 — 8) .

فاذا ما تدبرنا أول ما نزل من القرآن الكريم واستعنّا بما توصّلت إليه بعض العلوم التجريبية، أدركنا أن الانسان عجيب في تركيبه المادى ، وفي تكوينه العاطفي ، وفي قدراته الظاهرة والباطنة . إنه مهيأ للهداية ، كما هو عرضة للضلال . بل إنّ الجانب الثاني هو الذى يميل إليه . فكثيرا ما يتجاهل الإنسان ضعفه ، وكثيرا ما ينسى مراحل تكوينه ، فيخيل إليه أنه القدرة ذاتها ، فلا علم إلا ما يرتضيه هو ، ولا توجيهات إلا ما يساير شهواته ، ولا مصير إلا الذى يسمح له بان يطلق شهواته من مكامنها . وحتى لا يترك الله تعالى الانسان في طغيانه وفي ضلاله مكنه من أن يتعلم ، وأعطاه القدرات على العلم النافع وتكرم عليه ، فأرسل إليه الرسل تترى ليذكروه كلما غفل وتباينت أمامه السبل ، واختلطت عنده الحقيقة بالخيال، والهدى بالضلال . وختمت هذه الرسالات بالقرآن الكريم الهادى الناس إلى سواء السبيل بشرط أن يتدبروا آياته المحكمات وسوره المفصلات ، وأن يعملوا بتوجيهاته . وهكذا يتضح أن آيات خلق الانسان تشكل ميدانا

فسيحا لفهم وجود الله تعالى وادراك البعض من صفاته إلى جانب فتحها أبواب المعرفة والعلم أمام من أراد أن يأخذ من مائدة الله في هذا الميدان .

آما من اتجهت عنايته إلى فهم خلق الكون بعوامله المختلفة ، فما عليه إلا أن يجمع الآيات الكونية وأن يستنطقها ، فانه إن فعل ذلك فيستخرج منها المعلومات تلو المعلومات ، وسيجد فيها رفيق الدرب في مباحثه المتصلة بعالم الفضاء ، وطبقات الأرض ، وتحرك الجبال والبحار . كما ستيسر له فهم الظواهر الطبيعية ، كإحياء الأرض بعد موتها . وخصبها بعد جدبها واخضرارها بعد يبسها ، وكتكوين السحب وتجمعها وتنقلها في الفضاء الرحب وتحوّلها إلى ماء مدرار ؛ وكتلقيح الثمار . ومن يدري ، فلعل العلم سيكتشف لنا في المستقبل أمورا نحن الآن على جهل بها في حين أن القرآن الكريم قد تعرض إليها .

وسأكتفي هنا بآيتين كريمتين ، لأبين أن تدبرهما لو وقع على أحسن وجه لأفضى بالمسلمين إلى أن يكونوا رواد الفضاء وفرسان علومه . هاتان الآيتان هما قوله عز وجل : « والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون . (يـس : 39 — 40)

لقد تدبر أسلافنا هاتين الآيتين لغويا وبيانيا وبلاغيا . كما تدبروهما تدبرا معنويا اعتمد في أغلب الأحيان على الحس . ولكن العمل الذى أنجزوه لم يجد من يواصله ، فلم ينتقل الخلف في هذا البحث من مرحلة المقصود من قوله تعالى « قدرناه منازل » هل هو المنازل التي يسير فيها القمر لمعرفة الشهور والتي قدرت بثمانية وعشرين منزلا ، إلى مرحلة البحث عن أصل القمر ، وكيف كان قطعة من الشمس ثم انفصل عنها . وانتقل من مرحلة إلى مرحلة ومن منزلة إلى منزلة حتى أصبح كوكبا مضيئا بغيره ، فاقدا لعناصر الحياة . فمثله مثل العرجون القديم الذى كان في فترة ما جزءا من الشجرة المباركة النخلة ثم انتقل من مرحلة الحياة إلى مرحلة الجماد ، وكذلك يفعل الله في ملكه ما يشاء .

ان الفكر الاسلامي لو لم يدخل فترة الركود والجمود لما اكتفى ، وهو يتلو الآيات المتضمنة للقمر وسيره ونوره ، بما توصل إليه المتقدمون ولا نطلق من مباحثهم ليقدم معلومات ضافية عن الكواكب ، خاصة وقد خاطب الله تعالى الانس والجن بقوله : يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان (الرحمن : 33) . فلماذا لم يبحثوا عن هذا السلطان ، ولماذا لم يدركوا أنه لا يكون إلا بالعلم والعمل والاختراع ، وان هذه العناصر لا تعرف النهاية إليها سبيلا . لقد رسم القرآن الكريم في آيات كثيرة الصلة المتينة بين الانسان والكون . كما نبه إلى أن كوكبنا الأرضي هو المكان الطبيعي للحياة الدنيا . فالله تعالى قد جهزه تجهيزا يناسب جسمنا ، ولكنه تعالى لم يحرم علينا السعي إلى تخطي الحدود وكشف المحجوب ، وإنما أعلمنا أن ذلك لا يكون إلا نتيجة للعلم والعمل . فاذا أردنا الخروج من عالمنا هذا والتوجه إلى عالم القمر أو المريخ أو عطارد فما علينا الا أن نتهيأ ونتدرب ونسعى إلى التزود بالعناصر الأساسية الضرورية لحياتنا .

فالقرآن الكريم عندما تحدث عن انشراح الصدر وضيقه ، شبه ضيق الصدر بالشخص الذي يصعد إلى السماء ، أي إلى عالم الفضاء : فمن يرد الله أن يهديه بشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعّد في السماء (الأنعام : 125) .

فتدبر هذه الآية يثير قضايا متنوعة : فمنها ما هو لغوي كالبحث في مدلول الكلمات ومعرفة الحقيقة والمجاز ، والخوض في مسائل التشبيه والتمثيل . ومنها ما هو علمي نظري ، أو عملي تطبيقي كقضايا تركيب الهواء وطبقاته والمقدار الضروري منه للحياة ، وكاختراع الآلات التي تسمح بتحليله ومعرفة مقدار ضغطه وتناقصه كلما ابتعدنا عن سطح الكرة الأرضية وكتركيب الآلات التي تمكن من خزنه وتزويد الانسان به متى خرج من الطبقات الهوائيه . وكامكانية مقارنة هوائنا بمثيل له قد يوجد في جزء من أجزاء الفضاء الشاسع أو حول كوكب من الكواكب السابحة ، أو كامكانية نقل هوائنا بطريقة من الطرق إلى كواكب أخرى

لاحيائها والاستعانة بها لحل قضايا الانسان على الأرض ، إن القرآن الكريم لم يحرم مثل هذه الافتراضات والبحوث ، ولم ينه عن اخضاع ما يوجد في الكون لصالح الانسان ، بل هو أعلمه أن الله تعالى قد خلق له نعما ظاهرة وباطنة ، وسخّر له ما في الكون . فقد قال عزّ وجل : ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (لقمان : 20) ، وقال : « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار (ابراهيم : 32 ، 33 ، 34)

فواجب الانسان يتمثل في تدبر مثل هذه الآيات تدبرا يمكنه من معرفة خالق هذه النعم وحمده وشكره ، فأي حمد أعظم ، وأي شكر أصدق من استثمار هذه النعم استثمارا ملتزما يعود بالصلاح على الأفراد والجماعات ، وينمي الخيرات ويسمح باثراء الحضارة الانسانية . وهكذا يتضح للباحث أن القرآن الكريم قد اشتمل على كثير من الآيات التي تسمح للفرد بأن يستمد منها الادلة التي بفضلها يرسخ عقيدته ويحميها ويحفظها بالبراهين التي لم يصغها القرآن في قوالب متجردة بل دل عليها ورسم خطوطها العامة ، وترك للعقل شرف بنائها وابرازها مستخدما لبلوغ غاياته المعلومات المتوفرة والتجارب المتاحة .

واذا ما انتقل المتدبر من آيات العقيدة إلى آيات الأحكام، فانه سيلاحظ أن هذه الأخرة قد فسحت المجال للعقل وطلبت منه أن ينشط وأن يجمع ويستقرىء ويقارن ويستنبط . فإلى جانب أحكام العبادة وما يتصل بها من أهداف ورخص، فان آيات الأحكام تسمح للانسان بأن يستمد منها القوانين الضرورية لتنظيم الحياة الاجتماعية ، وحفظ حقوق الأفراد والجماعات وبيان واجباتهم ، وتمكين المجتمع من مؤسسات تسهر على تنظيمه سياسيا وعلى الرقي به ثقافيا واجتماعيا . ان المتدبر لآيات الأحكام سيجد المجال فسيحا ، والمسالك واضحة بشرط أن يميز بين أمرين أساسيين : هما الأحكام الثابتة ، والأحكام المتغيرة ، لقد أقام القرآن الكريم موازنته بين هذين

النوعين وجعل من الأول المعيار والدليل ومن الثاني الوسيلة الكفيلة بتمكين المجتمع من القوانين الضرورية للمسائل الناشئة . فالقرآن الكريم قد حرم الخمر وعلّل ذلك التحريم ، وجعل هذا التعليل عنصرا ثابتا . فكلما اشتركت مادة من المواد مع الخمر في هذه العلة فان الحكم يكون واحدا . وتدبر القرآن الكريم يمكّن من معرفة الثوابت حتى يتيسر للمشروعين أن يقيسوا الأشباه والنظائر .

ومن أسباب تأخر المسلمين واتساع الشقة بين واقعهم وبين التوجيهات الدينية انهم لم يتعاملوا تعاملا حكيما مع معادلة الثبات والتغير التي أقرها القرآن الكريم .

فلما تبّتوا ما هو متغير ، قدّموا الدين على أنه مجموعة من الأوامر والنواهي والتوجيهات التي لا تتلاءم ما يجدّ في المجتمع البشري من تطورات . فالدعوة التي يدافع عنها بعضهم الآن والمتمثله في الالحاح على العودة إلى السلفية عودة مطلقة تكتفي باحياء التراث ظاهرة خطيرة لا تساير في كثير من جوانبها توجيهات الاسلام ، وسلوك السلف ، فالقرآن قد علل كثيرا من الأحكام تعليلا إذا ما تدبره الانسان فسيلاحظ أنه يدعوه إلى أن يأخذ بعين الاعتبار الظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وهو يبحث عن أحكام للمسائل الناشئة في المجتمع الإنساني ، فلو تدبرنا الآيات التي تخص الرق لأدركنا أن الاسلام لا يقر هذا النوع من العلاقات الاجتماعية إلاّ أنه أدرك أن المجتمع في عهد الرسالة يتعذر عليه التخلص التام من هذا النوع من العلاقة . فالعبيد انفسهم سيجدون صعوبات اجتماعية واقتصادية إن هم تحرّروا تحرّرا مطلقا ، وبذلك ميز القرآن الكريم بين الحرية الأساسية المتمثلة في أن يكون الانسان مالكا لحياته ، ومسؤولا على عقائده وصلاته بربه ، وبين الحرية النفسية المتمثلة في أن يكون تابعا اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا لغيره من البشر لفترة معبنة ولأسباب مقبولة . وفي هذا الإطار يجب فهم النصوص القرآنية المتصلة بهذه القضية ، فهناك تحريم لقتل العبد إلا إذا ارتكب ما يوجب ذلك شأنه في ذلك شأن الحر ، وهناك تكليف للعبد مماثل لتكليف الحر . فكلاهما توجه إليه الخطاب

الالهي ، وكلاهما أمر بالعبادات والى جانب هذا وذاك هناك ، حث القرآن على تحرير العبيد . فلو تدبر المسلمون آيات هذا الحث ، ولو فهموها فهما صحيحا ، ولو أدركوا أن العبودية المادية من الأمور المتغيرة التي يجوز الاجتهاد فيها ووضع حدّ لها اذا استوجب الأمر ذلك ، لكانوا هم الذين حرروا العبيد تحريرا ماديا بعد أن حررتهم الأوامر الشرعية الثابتة على مستوى النفس والفكر .

وإذا كان تثبيت ما هو متغير يقود إلى الجمود والى انفصال الدين عن الحياة ، فان تغيير ما هو ثابت يقود إلى الضلال والى بعث الشهوات من مكامنها ، فتصبح القوانين والتوجيهات خاضعة لارادة القويّ ومنساقة وراء الحياة السهلة وساعية إلى تحقيق الملذات العاجلة ، فيصبح الانسان أسير يومه ، فتعم الفوضى ويسود الجهل وتختلط الحقيقة بالخيال .

فالحق لا يتولد عن الأهواء الجياشة والميول المندفعة والقوى الحيوانية . إنّه يتطلب الأسس المتينة قال تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن (المؤمنون : 71) فالنظام الكفيل بتحقيق سعادة الإنسان وحمايته من الشك الهدام والجشع والتسلط هو الذي يؤمن بأنّ هناك كليات منزلة لا يجوز للانسان أن يجهلها أو ان يعتدي عليها مهما كانت الاسباب والدوافع . فهي المعيار ، وهي الدليل ، وهي المرشد الذي بفضله لا نضل عند بحثنا عن حكم لما هو متغير أو فهمنا لما هو متجدّد .

ان جانب الشمول في الدين الاسلامي لا يقتصر على القضايا المتصلة بالعقيدة والعبادات والمعاملات والسلوك ، وانما يضم أيضا بيان طرق تبليغ المعلومات ونشرها ، واقامة البرهان والدليل على صحتها . ويسمى هذا الجانب عادة بالدعوة إلى الله تعالى . فهذه الأخيرة لا تكون مجدية ولا تؤتي أكلها المحمود إلا اذا خضعت لأهداف واضحة واتبعت طرقا سليمة . وقد وردت في القرآن الكريم آيات تخص هذه الدعوة وهي كآيات

العقيدة والعبادات والأحكام تتطلب من الانسان تأمّلا وتفكيرا وترشده إلى روافد المعرفة . فلا تقدّم حضاري الا بها ، ولا انتشار للخير والفضيلة إلا بواسطتها فقوله تعالى : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن (النحل : 125) يتطلب من القائم بوظيفة الدعوة أن يتعرف على سبيل الله تعالى ، فيدرك مكوناتها وحدودها حتى لا يتخطاها ولا يعتدي عليها ، لأنه متى وقع في ذلك فانه يكون ضمن الذين توعدهم الله تعالى لما قال : ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ندخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين (النساء : 14) واذا ما تعرف الداعي على هذه السبيل تعرفا شاملا فان الواجب يدعوه إلى تدبر هذه الحكمة وطرق استخدامها ، ولن يتسنى له ذلك إلا إذا تكون تكوينا يسمح له بالسيطرة على جملة من العلوم والمباحث كعلوم الخطابة والاجتماع والنفس ، فالجاهل إذا ما دعا إلى الدين فلن تصدر عنه إلا جهالات وحماقات ، ونصف المتعلم إذا ما نصَّبَ نفسه داعيا وواعظا فإنه إما أن يميل إلى التعسير، فينفر الناس أو أن يبالغ في الرخص فيضل ويضل . وسواء اتبع هذا المنهج أو ذاك فان هذا النوع من البشر يصح عليهم النعت الذي وصف به الرسول صلى الله عليه وسلم العلماء الجهال الذين سيكون ظهورهم علامة من علامات اشراط الساعة. فقد أخرج البخارى بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يُبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا (8) .

ان انصاف المتعلمين الذين لم يتدبروا الآيات التي ترسم طرق الدعوة إلى الله ومناهجها لا يجني الدين من دعوتهم الا التحريف والتبديل لأنهم لا يتورعون عن اصدار الأحكام والتوجيهات بدون علم وقد نهى الله

---

(8) البخاري : كتاب العلم . باب 35 : كيف يقبض العلم .

تعالى عن ذلك فقال : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا . (الاسراء : 36)

وهكذا يتضح لنا أن القرآن الكريم قد أمر بتدبر آياته . وأن هناك أكثر من سبب يعلل هذه الدعوة ويؤكدها ويبرز ضرورتها في كل عصر وفي كل مصر وخير ما نختم به هذه المجموعة من الأفكار هو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم : اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وارزقني علما ينفعني . » (9)

د. محسن عبد الناظر

(9) رواه النسائي والحاكم ، وللترمذي من حديث أبي هريرة نحوه . وقال فيه : اسناده حسن .